القسم الثالث

ظهور الإسلام

العقيـــدة

كان الإسلام فى مراحله الأولى عقيدة محدودة فى الجزيرة العربية ، أما اليوم فإنه بوصفه قوة عالمية ـ قد صار عقيدة وثقافة توحدان بين شعوب أشد ما تكون تباينا ؛ والإسلام بوصفه شريعة ، هو همزة الوصل بين هاتين الناحيتين : أعنى بهما العقيدة والثقافة . ومن ثم يمكن أن نستخلص فى إيجاز ثلاثة مظاهر للإسلام : — (ا) العقيدة (ب) الانتشار (ج) الثقافة ولعل من الأوفق — إن لم يكن من الأدق — أن تطلق هذه الأسماء على أدوار ثلاثة فى التطور التاريخى للإسلام .

ولم يكن مفر من أن يدور حول الأمور الثلاثة شىء من سوء الفهم الذى ألم بالآراء التى كونت عنها .

ولا يزال أتباع محمد (ص) يتهمون بالكثير من التهم الباطلة . ويعانون إلى اليوم مما أذاعه عنهم خصومهم فى العصور الوسطى من تخرصات أساءت إلى سمعتهم ، كما أن أوربا تنظر إليهم اليوم بالعين التى كانت تنظر بها إليهم أيام الحروب الصليبية . وقد بذلت فى الحقبة الأخيرة جهود يقصد بها استكشاف ماقد يكون متجمعاً من الحقائق تحت مجموعة الروايات والمأثورات التى نجدها فى المصادر المسيحية أو الإسلامية حول التاريخ المبكر لتلك الحركة الجديدة وأعنى بها الإسلام . والإسلام عقيدة جديدة ، وديانة عربية أصيلة . وذلك رأى صحيح . ولعمرى إن الجزيرة العربية مهد العقيدة ومنبتها ، وإن العقيدة احتفظت ببعض تقاليد العرب وسننهم الاجتماعية التى أثرت فى بعض مناسكها .

ولم يكن الإسلام عقيدة جديدة فقط ، بل كان أيضاً تأكيدا لاستمرار الوحى لأهل الكتاب . فإن سلسلة الأنبياء لاتنقطع : وفيها إبرهيم وموسى وعيسى ومحمد . وتعاليم الإسلام إن هى إلا توكيد جديد ، وتعديل موحى به لأسمى ماتحتويه المسيحية واليهودية من عناصر . تلك العناصر التى غطت عليها المؤثرات الهللينستية[1] . وقد اعتقد كثير من المؤرخين أن الفتح الإسلامى مظهر لحرب صليبية أو دينية عامة يشنها مقاتلة متعصبون حالمون ، يشهرون السيف فى يمينهم ويحملون القرآن فى شمالهم ، وقد وطدوا العزم على إدخال الكفار كرها فى دين الله وهو قول لاينطبق إلا على موقف الإسلام حيال المشركين من أهل الجزيرة . إذ الواقع أن الاسلام فضلا عما جبل عليه من تسامح شديد مع غير أبناء دينه لم يكن إلا حركة دينية عاصرت الحركة القومية ببلاد العرب[2] ، وكانت هذه حركة تقودها أرستقراطية من العسكريين شديدة الأخذ بالنزعة الواقعية ، وترى أن اعتناق الشعوب المقهورة للإسلام كرها ليس من حسن السياسة فى شىء . أما الثقافة الإسلامية فلم تكن كما ظن كثير من الناس حضارة أسيوية شديدة المناقضة للحضارة الأوربية . بل هى على العكس من ذلك بنت بيئتها ، فهى إحدى ثمار تلك العناصر التى صيغ منها مجتمعة الأساس الذى قام عليه أيضا الفكر المسيحى فى عصوره المبكرة . وهو اتحاد

---

(١) وهنا نشير إلى آراء كتاب العصور الوسطى تلك الآراء التى ظل الإسلام يقاسى منها إلى اليوم والتى ظلت تحجب عيون أوربا عن رؤية الإسلام على حقيقته . وهم وإن لم يرموه بالوثنية فقد اعتبروه فرقة خارجة (كذا ! ؟ ! . . .) انظر مقارنات يوحنا الدمشقى فى القرن الثامن . وانظر دانتى فى الكوميدية الإلهية (Historie de Byzance) (فاسيلييف ج ١ ص ٢٧٤) (Seminator di scandaloedi scisoma)

(٢) وسواء أجاز لنا تقبل نظرية كانيانى التى تذهب إلى حدوث عملية متواصلة من الجفاف (inaridimento) فى شبه الجزيرة العربيه أم لم يجز تقبلها فالواقع أنه لا يمكن إغفال أهمية العامل الاقتصادى بين أسباب الهجرة العربية .

الثقافتين الهلينستية والسامية . ذلك الاتحاد الذى شمل الشرق الأدنى بأكمله. وعندى أن هذا الأساس المشترك إنما هو إلى حد كبير ، السبب فيما أحرزه الإسلام من أثر قوى على ثقافة أوربا فى العصور الوسطى . ولاشك أن الخصومة الدينية أفضت إلى إسدال ضباب الإبهام والغموض على المصدر المشترك لثقافة الإسلام والمسيحية : وأعنى بذلك اشتراكهما فى التراث الذى وهبته للبشرية فتوح الإسكندر . على أنه يمكن تتبع هذه المشاركة على امتداد التاريخ الإسلامى بأجمعه ، على الرغم من تفوق العناصر الشرقية وازدياد بروزها ، نتيجة انتشار الإسلام فى الأقاليم الشرقية ، وانتقال العاصمة من الشام إلى العراق . وسنبحث الآن عن تفسير لهذه المفارقات الظاهرية .

بلاد العرب قبل ظهور محمد (ص)

إن الحركة المباغتة التى أطلقت على العالم فى القرن السابع الميلادى شعبا عربيا فاتحا ، إنما هى من المفاجآت المثيرة فى التاريخ . إذ إن بلاد العرب من البلاد التى لم تهيئها طبيعتها لتكوين حكومة موحدة ، وهى حقيقة لم تفت كلا من روما وفارس وتركيا وبريطانيا العظمى ، كل واحدة منها بدورها على كر التاريخ . ومن المعلوم أن الشطر الأكبر من أراضيها صحارى ورمال ، يجوبها البدو الرحل ، الذين تأصلت فيهم النزعة الفردية بحكم السليقة والتدريب ، وهى نزعة لاتعترف بأية رابطة ولا تدين بأى ولاء إلا فى حدود القبيلة ، أو حتى العائلة فى بعض الحالات . على أن العربى المتحضر النازل على الأطراف الخصبة والذى ألف حياة المدن ، واشتغل بالتجارة أو الزراعة ، وكان له اتصال دائم بالأمم المتحضرة ، والذى عمل وسيطا فى التجارة المتبادلة على الطرق التجارية الكبرى بين الشرق والغرب — ذلك العربى كان نقيضا

لإخوانه البدو الرحل . ومع ذلك لايكاد يحق لنا أن نتوقع العثور هنا على وجهة نظر قومية . على أنه حدث فى أقصى الجنوب العربى ، أن أفاد سكان اليمن من تجارة البحر الأحمر وبلغوا بفضلها قدراً من الوحدة ، كما تشهد بذلك آثارهم ونقوشهم — تحت حكم ملوك سبأ . ومع أن الغزو الحبشى قضى على أهميتهم السياسية قبل ذلك بقرن[1]، فإنه لم يستطع أن يغير الأحوال التى هيأت لليمنيين نصيباً ضخما من التجارة مع الشرق الأقصى . أما فى الشمال ، فقد أدركت روما وفارس أن مصلحتهما تقضى عليهما بتشجيع قيام سلطة مستقرة بين القبائل المتجولة فى ربوع شرق الأردن والفيافى المترامية التى تمتد من فلسطين إلى نهر الفرات ، وهو نفس الشىء الذى فعلته الدول العظمى فى الأزمنة الحديثة . فقام ملك الغساسنة على أطراف الشام بمؤازرة روما ، على حين اتخذت فارس من مملكة الحيرة « دولة حاجزة » وهى الدولة الفتية التى تعتبر المركز التجارى على الفرات الأدنى . ومع ذلك ، فإن كلا من هاتين الدولتين التابعتين قد زالت من الوجود قبل ظهور الإسلام بزمن قصير . وإذا انتقلنا إلى الغرب ، وجدنا عرب الحجاز يعيشون عيش الاستقرار وإن لم يتحدوا سياسيا . وقد مارسوا الزراعة بالجزء الشمالى من البلاد ، إذ إن يثرب التى عرفت فيما بعد باسم المدينة ازدهرت بها حرفة غرس النخيل ، وأقام بها عدد ضخم من السكان يتألف من زراع من اليهود والعرب . وعلى مبعدة مائتى ميل جنوبا على طريق القوافل الرئيسى الذى يسير على امتداد ساحل البحر الأحمر كانت تقع مدينة مكة ، التى كانت تدين برخائها كله للتجارة . وكان تجارها يزودون أسواق سورية والمغرب بالبخور وخشب العطور الواردة من جنوب بلاد العرب ، فضلا عما يرد من سلع الهند وأقاصى آسيا ، التى حالت العداوة

---

(١) انظر ص٢٠١ بعنوان البعثات البشرية والديبلوماسية .

بين روما وفارس دون اجتيازها طريق الفرات القصير . وكانت مكة أيضاً مثابة دينية تقوم بها « الكعبة » وحجرها الأسود الحافل بالأسرار وهى البيت العتيق الذى يجتذب الحجاج من كل أرجاء العالم .

ولم تكن الديانة فى بلاد العرب بأوفر من السياسة حظاً من التنظيم ، وكانت عناصرها الأساسية المقدسة هى المزارات والأضرحة المحلية والأعمدة والحظائر المسورة المقدسة والشعائر الموروثة وعدد كثير من الأرباب البدائية الغامضة. وقد أدخلت المجتمعات اليهودية والمسيحية النازلة بالمناطق الساحلية عقائدها . على أن عقائدها هذه كثيراً ما كانت فى صورة منحطة أو مبتدعة . غير أن الغالبية العظمى من السكان ظلت متمسكة بعقائدها العتيقة ، التى لم تتجاوز فى معظم الحالات ما كان معروفاً من قديم الزمن فى كريت وفلسطين من عبادة الأحجار النيزكية . ولاشك أن مثل هذه العبادات لم تعش نتيجة لشعور دينى أصيل بل عن استمرار التقاليد والعادات . ولم يحاول أحد من العرب البحث فى اللاهوت ، وإن كان يبدو أنه قد ظهرت حركة تتجه نحو التوحيد . ولعل مكة هى أهم مثابة دينية عند القبائل ، وتحيط بها منطقة حرام مقدسة . وزاد فى مكانتها وأسهم فى رخائها التجارى منسك الحج واحتفالاته التى تقام بها كل عام .

حياة محمد « عليه الصلاة والسلام »

ولد محمد بمكة حوالى عام ٥٧٠ م . وكان ينتمى إلى المجتمع التجارى النازل بها ، ويبدو أنه أدرك عند سن الثلاثين درجة معقولة من الغنى . والوصول إلى بيان مقنع عن خلقه من المصادر التى بين أيدينا ليس بالأمر العسير . وإن جرت العادة عند الشعوب القديمة أن تكون لنفسها صورة عامة للنبوة . والنبوة

— كما هو معلوم — طراز مألوف فى الشرق — وليس مختصاً بفرد بذاته — وفى أثناء « الفترة المكية » من حياته ، وهى المدة التى كانت دعوته الناس خلالها سراً ، تجمع حوله فئة قليلة من المريدين المخلصين . ولم يكن بد من أن تستثير الموضوعات الأساسية التى دعا إليها ، معارضة قوية من الماديين المحافظين ، الذين تأصل لديهم العرف القديم والأخلاق القبلية . ولم يقابل مذهبه فى وحدانية الله بأى تحد ولا معارضة ، ولكن إنكاره لقيمة الآلهة المحليين كشفعاء ، وتشديده القوى على ضرورة أداء الزكاة والرحمة بالضعفاء ، وأكثر من كل ذلك تأكيده اقتراب يوم القيامة ـ تلك المبادئ التى ظل محمد يدعو إليها بحماسة بالغة مستنداً إلى الوحى ، كل ذلك لم يكن بد من أن يثير مخاوف وشكوك ذوى المكانة من رجال المجتمع القرشى وأن يعتبروها آراء هدامة . فلا عجب أن قوبلت دعوته العاصفة وفكره الثائر على مقدساتهم ، بنقد وزراية من سادة المجتمع هؤلاء ، وهبط عليه الوحى يبررها بالأساليب الجدلية ، أما مبادؤه فقد عززت بالأمثلة والأقيسة المطابقة بصفة رئيسية لما ورد فى الكتب التى يؤمن بها أهل الكتاب من قبله . ولم يعد عليه هذا الاستدلال المنطقى إلا بزيادة عمق الهوة التى تفصله عما كان يعبد قومه ، ومن ثم أخذ الوحى يزداد تنديداً بشرك مكة وعبادتها للأوثان ، على أن حكمة الله اقتضت فيما بعد أن يجيز النبي بعض شعائر الكعبة ويتخذ منها ركناً جوهرياً فى الدين الجديد .

وكانت سنة (٦٢٢) نقطة التحول فى سيرة النبى (ص) . وهى السنة التى تمت فيها الهجرة ، حين غادر محمد (ص) مسقط رأسه مكة واتجه إلى المدينة وكانت بيئتها أكثر ملاءمة للتعاليم الجديدة . وكان كلما زاد أتباعه عدداً اشتدت الحاجة إلى القوانين والتنظيمات . ومن ثم كثر نزول آيات التشريع فى أثناء الفترة المدنية من رسالته . هذا وإن الأهمية السياسية الجديدة التى بلغها محمد (ص) لتنعكس فيما نزل من الآيات العديدة التى تحوى الحدود وتمثل

القانون المدنى والجنائى ، فضلا عن عدد من الشعائر والسنن الدينية . ولم يلبث محمد (ص) على الرغم مما لقى من السكان اليهود من معارضة ، أن بسط سيطرة الإسلام على مجتمع المدينة ، وأن جمع حوله مجموعة ضخمة من المؤمنين ، الذين أسلموا أنفسهم لله ورسوله على نحو ماتدل عليه كلمة « إسلام » . وكانت خطوة هامة تلك التى عول بها محمد (ص) على اعتراض سبيل قوافل مكة بوصف ذلك ضربا من الانتقام الإلهى من الكفار الذين آذوا أتباعه وشردوهم من ديارهم . والحق أنه لم يتهيأ شىء أشد إقناعاً للعرب بصدق دعوة محمد (ص) ، من النجاح الذى أصابته غزواته تباعا . وعقد المكيون وغيرهم ممن أضرت بهم هذه الغزوات ائتلافاً قوياً لمهاجمة المدينة ، بيد أن ذلك الائتلاف لم يفز بطائل ، ومن ثم أصبح السبيل ممهداً لعودة النبى ظافراً إلى مكة (٦٣٠) . وعندما توفى محمد (ص) فى (٦٣٢) كان الحجاز كله يدين بالطاعة لسلطانه السياسى والدينى كما أن الاحترام الذى كانت تلقاه جيوشه بكل أصقاع الجزيرة أكبر شاهد على أن قوة جامعة ومركزية جديدة قد نشأت ببلاد العرب . وبذلك لقى ماقام به النبى من الأعمال الجزاء الأوفى من الله تبريراً وتزكية .

العقيـــدة

من الجلى أن أساس الإسلام كان دينياً محضاً . إذ إن الحاجة الماسة إلى ضم من حوله من الناس إلى عقيدته ، هى الحافز الذى دفع مؤسس تلك العقيدة إلى العمل على اكتساب أتباعه الأولين . على أن العناصر السياسية لم تظهر إلا بعد الهجرة إلى المدينة .

فمنذ تلك اللحظة أضحى انتشار الإسلام مرتبطاً بسيادة المدينة وسلطانها . على أن الجميع كانوا مسلمين طالما اقتصر نمو الإسلام على بلاد العرب . ولكن

عندما انتشرت قوات العرب فى أرجاء الشرق الأدنى وشمال أفريقية ، وهى مهاد الحضارات القديمة ، صار الوضع مختلفاً ، وإذا بالعرب المسلمين يقيمون «دولة» . ولـكنها دولة تتصف بالتسامح المطلق . وبدلا من أن ينشر الفاتحون معتقداتهم بحد السيف ، تركوا رعاياهم أحراراً فى ممارسة عقائدهم على شريطة الاعتراف بسيادة العرب والالتزام بأداء الجزية المفروضة . فاحتفظ العرب بما للبلدان المغزوة من نظم إدارية وتجارية وقامت البواعث الاقتصادية بدورها . وبهذه الوسيلة تحققت المساواة الاجتماعية بين الغالب والمغلوب ، كما أن العناصر المشتركة بين المسيحية والإسلام ، ذللت العقبات التى تحول دون اعتناق الإسلام ـ غيرأن عملية اعتناق الإسلام لم تتم إلا رويداً رويداً . ومن ثم فإن الفتح السياسى الذى أنجزته الجيوش العربية سبق طبع ذلك الشرق بالطابع الإسلامى بمدة مائتى سنة أو ثلاثمائة .

الباب التاسع

الفتوح الإسلامية

كان للدين الإسلامى — كما رأينا — الفضل فى تنظيم المدينة . وأدى ذلك التنظيم إلى جمع كلمة العرب ودفعهم إلى الفتح العسكرى : ونبتت عن هـذا المجتمع دولة . ولاشك أننا نلمس مفتاح هذه الحركة فى صفات الخلفاء الراشدين . فقد أعقبت وفاة محمد (ص) ثورة عامة ببلاد العرب على سيطرة المدينة ، وكأنما قدر للإسلام أن يخر صريعاً فى تلك اللحظة إزاء ما تعرض له من حركة جارفة من الشعور القبلى والنزعات الفردية . ولم ينقذ الموقف إلا القواد المسلمون الذين اشتهروا بالقوة والشدة فقادوا جيوش المدينة لقتال القبائل التى تسكن وسط شبه الجزيرة العربية . والواقع أن هؤلاء القادة ـ هم وحدهم دون المتأملين الذين ملأ الإسلام قلوبهم — هم الذين قادوا حركة قمع المرتدين . فاستطاعوا بما شنوه من حملات سريعة بسط سيادة الإسلام ثانية على الجزيرة العربيـــة ، وتمكنوا من جمع شتات العناصر المتحاربة كلها فى حلف واحد ، وبذلك أعدوها للقيام بأعمال الفتح . ولـكن قبل أن يتم إخضاع بلاد العرب ، بدأت الغارات الأولى على الشام والعراق ، التى كانت تشنها جيوش قليلة العدد ، ليس لديها إلا فـكرة ضئيلة عن الفتح الثابت المنظم ، واجتاحت كل شىء أمامها ، كما أن ما أحرزته تلك الجيوش من انتصارات جارفة فى اليرموك والقادسية[1] قد أتاح لذلك الحلف الحديث النشأة من التماسك ما جنبه التمزق وتفرق الـكلمة بإنفاذه جموع حشوده على البلاد المجاورة . ذلك أن الوقت قد تهيأ فعلا لتلك الغزوات . إذ إن أقرب منفذ لتلك القوات

---

(١) انظر ص ١٥٣

الهادرة هو الأرض الواقعة شمال الجزيرة العربيـة مباشرة بين إمبراطوريتى روما وفارس .

ولم تكن الإمبراطوريتان فى مركز يؤهلهما للقيام بمقاومة منظمة . إذ تلت انتصارات هرقل فترة تفشت فيها الفوضى بدولة الساسانيين ، حتى إذا عاد النظام فى آخر الأمر إلى نصابه ، كانت عودته بعد فوات الأوان . على أن مركز دولة الروم (بيزنطة) التى كانت فى ظاهرها عظيمة القوة والازدهار ، يحتاج منا إلى شىء من التوضيح : ذلك أن ما أحرزته من انتصارات لم يقتصر على تحويل فارس إلى دولة ذليلة لا قدرة لها على القتال وحسب ، بل إن تلك الانتصارات استنفدت موارد الروم بشدة أدت إلى ضياع كل ما استردته حديثا بمصر والشام من الأراضى فى مدى سنوات ثمان . ومن أهم الأسباب التى أفضت إلى تحويل كفة الحظ عنها ، ما أصاب قوتها العسكرية من الانهيار . إذ إن الحملات التى استمرت طويلا أفسـدت نظام جندها . كما أن هرقل الإمبراطور الشيخ الذى انصرف إلى الخصومات الدينية ، لم يعد كعهده قديما نافذ الكلمة فيهم . وكان الجيش يتألف من عدة أخلاط من الجند . فانخرطت فيه أعداد غفيرة من الأرمن وسكان جبال القوقاز ، وأسهمت هذه العناصر الشاذة فى بث الفوضى بين صفوف الجيش ، على حين لم يكن قادتهم الذين ينتمى معظمهم إلى النبلاء الإقطاعيين ببلادهم ، أقل منهم تمرداً . وقد أدت هـذه العيوب إلى إنزال أفدح الأضرار بالقيمة العسكرية لهذين الجيشين المرابطين بالشام ، على حين زادت الأحوال بمصر سوءاً . فإن الدفاع نيط هنا بجند من المليشيا من ملاك الأرض ، وهم قوم لا خبرة لهم فى شئون الحرب ، على حين كان يشترك فى القيادة خمسة قواد أنداد ، وهو وضع من اليسير تصور ما ينجم عنه من عواقب . وفضلا عن خطورة الموقف العسكرى ، كان هناك خطر

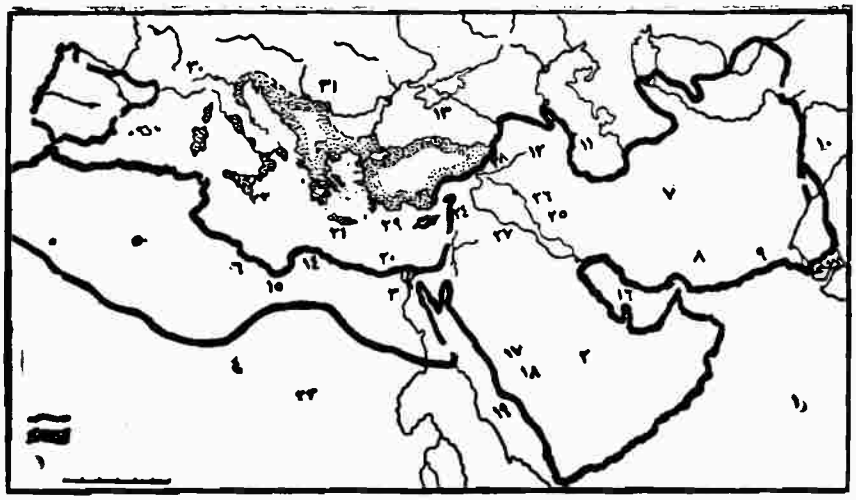

(٩) خريطة العالم الإسلامى

١ — المحيط الهندى	٢ — بلاد العرب	٣ — مصر
٤ — الصحراء	٥ — البربر	٦ — أفريقيا
٧ — فارس	٨ — كرمان	٩ — مكران
١٠ — هندوستان	١١ — بحر قزوين	١٢ — تفليس
١٣ — البحر الأسود	١٤ — برقة	١٥ — طرابلس
١٦ — الخليج العربى (الفارسى)	١٧ — الحجاز	١٨ — مكة
١٩ — البحر الأحمر	٢٠ — الإسكندرية	٢١ — كريت
٢٢ — صقلية	٢٣ — القاهرة	٢٤ — أنطاكية
٢٥ — العراق	٢٦ — بغداد	٢٧ — نهر الفرات
٢٨ — أرمينيا	٢٩ — جزيرة قبرص	٣٠ — الفرنجة
٣١ — الآفار		

أعظم، هو انتشار السخط بين السكان . ولو أن الدولة البيزنطية حزمت أمرها واتبعت سياسة اكتساب رضا الناس وخففت عنهم أعباء الضرائب وانتهجت سبيل التسامح الدينى ، فلربما كان من المعقول أن تبقى على ولاء الشام ومصر نحو الإدارة البيزنطية . ولكن ما اتخذه هرقل من إجراءات لم يكن منها بد ، عادت على الدولة بتنفير جميع طبقات السكان منه . فإن جميع ما كان بالخزانة الإمبراطورية من أموال قد استنفدته حروب الفتوح ، كما أن الولايات التى استردت حديثاً سرعان ما ألزمت بتحمل نصيبها كاملا فى أعباء الضرائب وتزويد الدولة بالإيرادات . ومما زاد الموقف ببلاد الشام تفاقما ، ما كان بين اليهود والمسيحيين من كراهية متبادلة تفجرت فتناً ومذابح هاجت بالمدن الكبرى . وفى (٦٣٤) صدرت الأوامر بتعميد اليهود كرهاً ، على حين أن أنصار مذهب وحدة طبيعة المسيح المسمون بالمونوفيزيتيين ، رفضوا العمل بما عرضه الإمبراطور من صيغة للتوفيق بين المذاهب الدينية ، فأدى ذلك إلى إنزال الاضطهاد بكل من الشام ومصر على السواء . وتتجلى نتيجة ذلك فيما تشهد به التواريخ المعاصرة وتراجم الرهبان الأقباط ، التى تعبر عن الفرح لكل ما حل بالإمبراطورية من هزائم، وتعدها آية على الانتقام السماوى من « هراطقة خلقدونية » .

فتح الشام

دأب عرب الحدود النازلون على أطراف الشام على الغارة منذ زمن بعيد على مدن تلك الثغور ، ولذا لم تثر غارات المسلمين الأولى عليها أى قلق فى بيزنطة . إذ حدث فى (٦٢٩) قبل وفاة النبي بزمن طويل ، أن البيزنطيين صدوا هجوماً قام به العرب على جنوب فلسطين ؛ غير أن العرب ما لبثوا أن قاموا بعد ذلك بخمس سنوات بحركة أعظم قوة . إذ دخل جيشان من الجنوب

والشرق وأنزلا الهزيمة بقوات بيزنطة . وما وافت السنة التالية حتى كان العرب يعسكرون أمام دمشق . وبذل هرقل جهوداً جبارة باسلة لإنقاذ المدينة ولـكنها لم تجد نفعا ، وما لبثت أن اضطرت بعد ستة أشهر أن تفتح أبوابها . ثم أخذت المدن الباقية تخر الواحدة تلو الأخرى صريعة أمام الغزاة ، ولم تحافظ على كيانها إلا بيت المقدس وقيسارية وسائر المناطق الساحلية . واستمد هرقل بشجاعة لا تتزلزل لتوجيه ضربة فاصلة دفاعاً عن الشام . فلما أقبل الربيع ، زحفت على الشام قوات بيزنطية ضخمة جمعت فى أثناء الشتاء بعصبية محمومة . واستردت مدينة دمشق ، وتراجع العرب أمام القوات المتفوقة عليهم عددا إلى الجانب الآخر من نهر اليرموك . ودارت بهذه المنطقة عدة اشتباكات ، بلغت ذروتها فيما حل بالبيزنطيين من هزيمة ساحقة على نهر اليرموك (أغسطس ٦٣٦) تقرر بها مصير الشام . وقد ألقى هرقل بكامل قواته فى تلك المعركة ، لذا أضاع ما أصابها من شامل التدمير كل أمل فى ملاقاة العدو مرة أخرى . ومن ثم لم تلبث الحصون أن سلمت واحدا بعد آخر . وما وافت (سنة ٦٣٧) حتى سقطت فى أيدى العرب المدن الساحلية : وهى عكا وصور وصيدا وبيروت : وشهدت السنة التالية سقوط بيت المقدس وأنطاكية ، وعندما سقطت قيسارية وهى العاصمة الإدارية للبلاد فى (٦٤٠) ، أصبحت البلاد بأسرها تدين للسيادة الإسلامية بالطاعة والإذعان .

وقد ركز العرب على الشام قواتهم الرئيسية المعدة للغزو ، ولم تـكن حملاتهم على العراق ذات نطاق واسع ، كما أنها لم تصب نجاحاً ملحوظاً . على أن ما أحرزه المسلمون فى اليرموك من نصر أتاح لهم أن يحولوا اتجاه الفتوح ، بعد أن دارت رحى معركة عظيمة فى القادسية (٦٣٧) ، كان أثرها فاصلا بالنسبة لبلاد الفرس كاليرموك بالنسبة لمستقبل الشام . إذ تراجعت الجيوش الفارسية بغير نظام بعد أن شتت شملها تماماً ، بينما سارع الملك إلى الفرار من عاصمة

ملكه . وعندئذ زحفت القوات العربية على المدائن (طيشفون) فاستولت عليها وانتهبتها . وسرعان ما اجتاحت جيوشهم أرض الجزيرة ، واندفعت جموع المسلمين إلى أعلى الدجلة والفرات ، ومضت فى سبيلها حتى اخترقت سلاسل الجبال الأرمينية . وفى نفس الحين ، واصل الفاتحون حملاتهم فى الإمبراطورية الفارسية حتى دانت ولاياتها الجنوبية والشرقية بطاعة العرب ، أما آخراً كاسرة الفرس ، فإنه واصل الفرار شرقاً أمام الغزاة ، حتى لقى مصرعا غير كريم عند مرو على تخوم بلاد الترك . ومما هو جدير بالملاحظة أن حضارة فارس الأصيلة التى لا تمت للسامية بأدنى صلة ، استطاعت بفضل تقاليدها الممتازة التى دامت نحو ألف عام ، أن تبدى من عنيد المقاومـــة للغازين ما لم تبده بلاد الشام ولا العراق . إذ إن فتح فارس لم يكتمل حتى بعد انقضاء عشر سنوات ، ونجحت فارس فى الاحتفاظ بلغتها القومية وطرائق تفكيرها .

فتح وسط آسيا

لم يعد للإمبراطورية الفارســية وجود عند عام (٦٥٠) ، ولـكن قوة الاندفاع العربى لم تـكن تبددت بعد . ومن ثم صار لزاماً على أقاليم آسيا القاصية أن تتلقى آنذاك اندفاعة السيل العربى الجارف . وكما هو الشأن فى الغرب ، كان مما سهل تقدمهم ضعف الإمبراطوريات التى واجهتهم . فقد عمت الفوضى بلاد الترك الذين ظلوا قبل ذلك بحوالى قرن من الزمان سادة لآسيا الوسطى ، وانحلت عرى الإمبراطورية الضخمة لخانهم الأعظم فصارت مجموعة مضطربة من القبائل المتناحرة . وأخـذ فرسان المسلمين عند ذاك يزحفون قدماً على هراة وبلخ (٦٥١) . وتوقف الزحف ردحاً من الزمان بسبب ما نشب فى العراق من خلافات ثم لم يلبث أن مضى فى سبيله من جديد ، ولم تنقض عشرون سنة أخرى حتى سقطت أمام الزحف المظفر بخارى وسمرقند . وفى بواكير القرن التالى انسابت

موجة جديدة من الفتوح صوب الشمال الشرقى ، حتى بلغت تخوم الصين ، يوم بلغت أسرة تانج الصينية الباهرة أدنى دركات الانحطاط ، وأوشكت التركستان الصينية على السقوط : لولا أن برزت قوى جديدة فى الصين ، فما وافى القرن الثامن حتى عادت الأمور إلى نصابها . وعنـد ذلك كانت قدم الإسلام قد توطدت راسخة بكل من بلخ وسمرقند، وسيطرت قبضته على التركستان الغربية، وأمسي متحكماً فى ممرات هضبة البامير ، وفى تلك الأثناء توغل الفرسان المسلمون فى الشمال الغربى من الهند . وكانت إمبراطوريات ذلك الإقليم وهى السند وكشمير والپنجاب تخضع لأمراء الجوبتا النازلين جنوبى تلك الإمبراطوريات. على أن هذه السيادة لم تلبث أن انهارت قرب نهاية القرن السابع ، ولذا فإن المد الـكامل للفتوح الإسلامية الذى بدأ فى مستهل القرن التالى ، حمل راية العرب المظفرة إلى صميم حوض السند ، ووضع أساس العظمة التى بلغها فيما بعد أمراء الپنجاب .

فتح مصر وشمال إفريقية

على أن فتح مصر إلى الغرب كانت له أهمية مباشرة بالغة ، وقد جاء على أثر فتح الشام ، وكما هو الشأن فى جميع الحالات السابقة ، سبقت احتلال مصر حملة نهب لقيت من النجاح المفاجىء ما شجع على القيام بعمليات أوسع . على أن القيام بالحملة كان أمراً لا مفر منه . فبالإضافة إلى ما تملـكه مصر من الأراضى الغنية بالقمح ، وما لهـا من مركز عظيم الأهمية التجارية ، فإنها كانت مصدر تهديد مقيم لبلاد الشام الإسلامية ، كما كانت قاعدة بحرية دائمة لـكل ما تشنه بيزنطة من هجمات مضادة . وكانت الإسكندرية هى المركز الرئيسى لبناء السفن فى شرق البحر المتوسط ، ثم قيض لها إبان القرون التالية أن تصير مهدا لقوة الإسلام البحرية النامية .

وعلى الرغم من أن تفاصيل الفتح ليست واضحة ، فقـــد برزت فيه شخصيتان كبيرتان . فـكان زعيم المقاومة البيزنطية هو البطريرك كيروس (Cyrus) ، الذى كان يتولى كذلك مقاليد الإدارة المدنية فى البلاد . وكان قائد القوات العربية هو عمرو بن العاص وهو قائد محنك أظهر جدارته فى حروب الشام . ويتركز الفتح فى حصار حصن بابيلون ، وهو يقع غير بعيد من القاهرة الحديثة . ومن العسير علينا أن نصدر تقديراً لسياسة كيروس المعقدة : إذ يبدو أن أهم ما كان يبغيه هو الوصول إلى اتفاق يتفادى به إهراق الدماء بغير جدوى ويحول دون تدمير الممتلـكات ، وكانت نتيجة ذلك أن حصن بابيلون سلم فى (٦٤١) بعد أن صمد فى دفاعه عدة أشهر ، ثم فتحت أبواب الإسكندرية فى السنة التالية بمقتضى معاهدة كان الداعى إلى عقدها كيروس نفسه ، ثم تواصل بعد ذلك إخضاع ما تبقى من القطر المصرى ، وقد درت سياسة المسلمين فى تلك الأيام الأولى كما أشرنا آنفاً على عزل العنصر العربى عن باقى سـكان البلاد المفتوحة ، وجعل العرب طبقة حاكمة تنعم بامتيازاتها الخاصة . ومن ثم اختيرت عاصمة جديدة قرب حصن بابيلون القديم فظهرت فى الوجود مدينة الفسطاط أو مصر القديمة ، لتـكون المركز الرئيسى لسلطان العرب ، مثلمـا حدث فى بلاد العراق أن مقر الحـكم لم يجعل فى المدائن (طيشفون) بل فى الـكوفة (بالقرب من الحيرة) ، لتـكون قلعة العروبة الإسلامية . وعلى هذا النحو ، يمكن القول إن استكمال فتح شمال إفريقية بدأ بإنشاء مدينة القيروان الضخمة .

فتح شمال إفريقية

على أن فتح شمال إفريقية كان عملية بطيئة يثبطها عاملان رئيسيان : هما مقاومة البربر والنزاع على الخلافة . ومن المعروف أن الحروب العظيمة التى خاضها جستنيان قضت على الوندال ، وأعادت الرخاء إلى المناطق الساحلية ، ولـكنها أخفقت دون القضاء على قوة مشايخ البربر وكبح جماحهم : فبقيت فى أيديهم مناطق بأ كملها ، ولم يصن الأراضى المزروعة من غارات القبائل سوى اليقظة المستمرة على امتداد شبكة الطرق العسكرية والمعاقل فضلا عن الأساليب الدبلوماسية والأعطيات المـالية التى تصرف فى إبانها . على أن موارد الإمبراطورية استنزفتها حروب هرقل مع فارس وهجمات المسلمين ؛ وكانت عاقبة ذلك أن العاصمة (القسطنطينية) أصبحت عاجزة عن مساعدة ولايتها الإفريقية ، فضلا عن ضبطها والهيمنة عليها ، ولذا فإن حاكم قرطاجة شق عصا الطاعة على الإمبراطورية . فكأن الفتوحات العربية التى بدأت حوالى (٦٤٢) لم تلق والحالة هذه إلا القليل من المقاومة المنظمة ؛ ولـكن الاحتلال الدائم للبلاد تأخر حتى نهاية القرن السابع . ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى ما اتخذه شيوخ البربر منذ البداية من الروح العدائية للعرب . على أن الموقف لم يلبث حتى تغير بمجرد دخول رجال القبائل فى الإسلام . وقد تركز حكم قرطاجة وروما للولايات الإفريقية فى المدن الساحلية ؛ أما سيادة الإسلام فاستمدت قوتها من البربر سكان المناطق الداخلية ؛ ومن حشود البربر هؤلاء ، جاءت جموع المقاتلين الذين تدفقوا على مناطق ساحل البحر المتوسط ، حتى أزالوا بقايا الحكم البيزنطى وانتشروا عبر البحر إلى أسبانيا وصقلية . ولا ريب أن البربر كانوا العامل الحاسم فى هجمات المسلمين على غرب أوربا .

أما العامل الآخر الذى سبقت الإشارة إليه على أنه عقبة فى سبيل تقدم

المسلمين ، فلم يبلغ من الأهمية هنا ما كان له فى الشرق . على أن النزاع على الخلافة قد أخر تماسك مصر ، وبذلك عوّق كل ما وراء ذلك من زحف أو تقدم ؛ يضاف إلى ذلك أن كل قائد يوفق فى حملاته كان يتعرض دائما لإثارة غيرة الخليفة منه ، ولذا فإنه كثيرا ما كان يستدعى أو يعين قائد آخر مكانه . وحرص العرب منذ (٦٤٢) على الاستيلاء على إقليم برقة الساحلى (إقليم المدن الخمسة Pentapolis) الذى يقع غربى مصر مباشرة ، رغبة فى وقاية جناحهم الأيسر من هجمات البيزنطيين ؛ ولكن إنشاء المعسكر العظيم بالقيروان فى تونس لم يتم إلا فى (٦٧٠) ، وكان الغرض من إنشائه اتخاذه قاعدة لمواصلة القتال والتوسع فى فتح ولاية إفريقية البروقنصلية . وحدث بعد ذلك بنحو اثنتى عشرة سنة ، أن البربر الذين كانوا لايبرحون ضالعين مع المدن البيزنطية قاموا بعصيان عام ، رد المغيرين إلى برقة ، ولذا فإن الفتح النهائى لشمال إفريقية الذى تم فى السنوات الأولى من القرن الثامن ، لم يكتمل إلا بعد أن خضع البربر النازلون بجبال أوراس ، وبعد تمكن العرب من استرضائهم ، وبعد تركز الامتداد الإسلامى على البلاد الساحلية بفضل نمو البحرية العربية .

على أن مشكلة البربر ظلت على ماهى عليه : فلم تكن الإعانات المالية عاملا كافياً يضمن ولاءهم ، كما أن فتح أسبانيا الذى تلا ذلك مباشرة ، إنما يرجع إلى الحاجة إلى توفير الغنائم للحلفاء الجدد وشغلهم بمعض المشاغل . ويبدو أن الهجوم على أسبانيا الذى حدث فى (٧١١) — لم يكن فى البداية إلا واحدة من الغارات العنيفة التى كانت تهبط طوال العصور الوسطى على سواحل جنوب أوربا وجزرها ، وتعود محملة بنساء المناطق الريفية وبالتماثيل المحلاة بالجواهر والمنتهبة من الأديرة . على أن المغيرين كان ينتظرهم هنا نجاح لم يخطر لهم ببال . ففى أثناء سيرهم على امتداد الساحل ، التقوا بالقوط الغربيين وشتتوا شملهم ، وعندئذ بدأوا حركة تقدم وزحف ظافر . ومهد السبيل للنصر

المؤزر كراهية الشعب للقوط ، وما كان من خيانة اليهود الذين أرادوا الانتقام لأنفسهم على ماحل بهم من اضطهاد . ولم ينقض شهران حتى سقطت قرطبة ثم تبعتها طليطلة بعد بضعة أسابيع . وقد انهارت مملكة القوط الغربيين كبيت مصنوع من ورق اللعب ، إذ أوهنت تقلبات الأسر المالكة على العرش قوتها ، وأضعفتها الخلافات والفتن الداخلية . وما عتمت هذه الانتصارات الرائعة السريعة التى أحرزتها جيوش المسلمين ، أن استقرت وتماسكت فى السنة التالية عندما عبر البحر والى إفريقية بأمداد وتعزيزات وفيرة ، واستطاع بعد معارك عديدة محكمة طرد فرسان القوط إلى جبال أستورياس ، ثم أعلن من طليطلة سيادة خليفة دمشق على البلاد . واستمر الزحف إلى ما وراء جبال البرانس ، ولم تمض سنوات قليلة حتى صار فى حوزة الجيوش العربية البربرية ساحل فرنسا الجنوبى حتى أربونه . ومن هذا المركز ظلوا فى الأربعين سنة التالية يناوئون المدن المجاورة ويرهقونها بالغارات : تولوز وآرل وآڤينيون . ولكن الطرف الأيسر من الجيش الإسلامى الزاحف كان قد اقترب من النهاية وبلغ أقصى طاقته . ذلك أن أودو (Eudo) دوق قطانية (أكيتانيا) (Aquitaine) استبسل فى الدفاع عن أسوار تولوز ، وبلغ النضال أقصى غايته فى المعركة الحاسمة المعروفة باسم وقعة تور — پواتييه أو بلاط الشهداء سنة ٧٣٢ ، التى هزم فيها شارل مارتل هزيمة ساحقة الجيوش الإسلامية . على أن الواقع أن شدة الغزو كانت تبددت ، ولذا فمن المشكوك فيه إمكان قيام فتح دائم بجنوب فرنسا . وقد كثرت الأخلاط البربرية فى ذلك الحين فى الجيوش العربية ، كما أن بوادر العداوة بين الجنسين ازدادت عند ذاك وضوحا فى أسبانيا وإفريقية . هذا إلى أن مملكة أستورياس التى تقع فى الطرف الشمالى الغربى من أسبانيا ، والتى اجتذبت إليها جميع العناصر المناهضة للمغيرين ، كانت

تزداد فى كل يوم قوة ونموا ، وإذ صارت حاجزا على امتداد جبال البرانس، حالت دون تدفق المدد من الجنوب .

الخطر على بيزنطة

على أن الحضاوة الأوربية تعرضت لتهديد أشد وطأة ، أخذ يشتد فى الطرف الآخر من البحر المتوسط ، حيث صارت بيزنطة الهدف الحقيق الذى يشخص إليه المسلمون ، ولقد كان هذا الهجوم الصادر فى الجناح الأيمن للإسلام أقوى كثيرا من سابقه بصورة مطلقة ، وذلك لأنه كان صادرا من قلب الإمبراطورية الجديدة ذاته .

ولما وافت (٦٤٢) كانت الكتائب الناهبة تمرح فى قبادوقيا ، ثم بلغوا فريجيا فى (٦٤٦) ، ولم يلبثوا حتى نفذوا إلى أنقره فى (٦٥١ ، ٦٥٣) ، أما الموقف فى أرمينية فكان بالغ الخطورة ؛ إذ تم احتلال البلاد احتلالا منظما بين عامى (٦٤٦ ، ٦٦٦) . لقد كان مد الزحف متجها نحو بيزنطة فى حركات بطيئة متمهلة ، تخللتها هجمات مفاجئة . وبلغ الزحف مدينة خلقدونية فعلا فى فى (٦٦٨) . وفى تلك الأثناء كانت قوة البحرية الإسلامية فى نمو مطرد . فتسللت أساطيلهم من الموانى الإفريقية وفتحت كريت وليقيا وجزائر بحر الأرخبيل ، ولم تلبث قبرص حتى أصبحت قاعدة بحرية هامة . وكلما زادت أساطيلهم جرأة ، زاد ضغطها على العاصمة (القسطنطينية) ، ومالبثت العمليات الحربية أن بدأت بمنطقة الهللسبونت (الدردنيل) نفسها . ثم تعرضت القسطنطينية فى (٦٧٣) لهجوم بالغ الشدة من البر والبحر ، ولم يصد الروم ذلك الهجوم إلا بأقصى مشقة ، وبما كان للنار الإغريقية من أثر رهيب . ثم هدأت الحملات عشرين عاما تهيأ فيها للبيزنطيين وبيزنطة المرهقة فترة تنفسوا فيها

الصعداء ، وذلك لما وقع بين المسلمين وقتذاك من الفتن الداخلية ، فانتهز البيزنطيون الفرصة واستردوا أرمينية برهة قصيرة . على أن العرب ماعتموا أن عاودوا الزحف فى (٦٩٣) ، وتعرض البوسفور مرة ثانية للتهديد . وأخيراً حدث حصار القسطنطينية الكبير فى (٧١٧) ، وهب للدفاع عنها الإمبراطور ليو (لاوون) الأيسورى دفاعا بطولياً مجيداً أحرز من الانتصار الرائع ماأوقف تقدم المسلمين [١] مدة ثلاثة قرون بعد ذلك .

وربما أمكن اعتبارهذه المعركة إحدى المعارك الفاصلة فى التاريخ . وعندما ولى الغزاة وجوههم شطر بلادهم بعد حصار طويل دام عاماً كاملا أحرقت فيه وسائل نقلهم أووقعت بأيدى أعدائهم ، وفت فى عضد جندهم برد قارس ، وفتك بهم الوباء والمجاعة فتكا ذريعاً ، تخلوا لعدة قرون بعدذلك عن آخر مغامرة جدية لهم على عاصمة الإمبراطورية الرومانية . ذلك أن الأباطرة الأيسوريين أقبلوا على الدولة ينظمونها من جديد ، فشدوا بذلك من قوة الموارد الداخلية للمتلكات البيزنطية ، وبذلك قضوا على احتمال للقيام بعمل مشترك على هذا المعيار الضخم . وآية ذلك أن العمليات البحرية بشرق البحر المتوسط أصبحت منذ تلك اللحظة مقصورة على غارات صيفية ، حتى شاركهم فى ذلك عرب المغرب الذين ملكوا صقلية وكريت . على أن ماانعقد لبيزنطة من مجد ، إنما يرجع إلى صمودها منفردة أمام قوة الإسلام الكاملة ، فى اللحظة التى بلغت فيها قوة المسلمين ووحدتهم ذروتها ، لا باعتبارها منقذة للتقاليد الإمبراطورية القديمة فحسب ، بل باعتبارها أيضاً صاحبة الفضل مستقبلا فى تخليص أوربا فى العصور الوسطى .

---

(١) عاود الإسلام تقدمه للمرة الثانية على يد الأتراك السلاجقة بعد معركة مانزيكرت (١٠٧١)

الفصل العاشر

الحضارة الإسلامية

لم يترك محمد (ص) للمسلمين من بعده أية خطة لولاية الحكم، كما أن وفاته حرمت الحركة من ينبوعها الرئيسى ـ ذلك أنه كان مرجعهم فى كل شىء؛ فإن كلمة الله التى تصدر على لسان رسوله كانت هى العليا. ولم تلبث المناقشات حتى نشبت بين صحابته وهم أتباعه المباشرون، واقترن ذلك بثورة تمرد قامت بها القبائل العربية التى لم تألف بعد سيادة المدينة عليها، على حين نهض بجهات مختلفة من شبه الجزيرة العربية، جماعة من المتنبئة. على أن حروب الردة الدامية التى أفضت كما رأينا آنفاً إلى إلزام بلاد العرب كلها بالطاعة، كانت لها نتيجة مباشرة هى فتوح الإسلام الخارجية. بيد أنها كانت لها مع ذلك نتيجة أخرى هى قضاؤها على ما كان بين أحزاب المدينة من مناقشات لمواجهة الخطر المشترك. فاختير أبو بكر خليفة للنبى، لما له من وقار وهيبة واحترام، ثم تولى الخلافة من بعده عمر بن الخطاب، وهو سياسى عبقرى من الطراز الأول، وهو الذى وضع أساس الإمبراطورية الإسلامية بما أبداه من براعة فى توجيه حملة فتح بلاد الشام. على أنه اغتيل فى (٦٤٤) بيد مجرم من الروم أو الفرس، فتولى الخلافة من بعده عثمان أحد أفراد بنى أمية .. وبدأت حركة انتقاض على الحكومة المركزية بين جند الكوفة ومصر الذين غلبت عليهم البداوة وزكاها باسم الدين خصوم عثمان ـ وبدأت فى الخفاء مفاوضات مع مسلمى المدينة انتهت بمقتل عثمان على يد جماعة من جند مصر.

على أن عليا ابن عم النبي ، جانبه الصواب ، حينما رضى بأن يتولى الخلافة بعد عثمان ، وذلك بعد أن انسحب إلى مكة جميع المطالبين بها . ولما كانت البصرة هي التي تناصر هؤلاء المطالبين ، كان طبيعياً أن تناصر الكوفة علياً على منافستها ، وحقق له انتصار الكوفة على البصرة سيادة مؤقتة على العراق . وعند ذلك صار لزاماً على علي أن يلتقي بجيش معاوية والى الشام ، ومع أن النتائج الأولى للقتال لم تكن حاسمة ، إلا أن ميزان القوة العسكرية والرأى العام مالبث أن تحول رويداً رويداً إلى جانب معاوية . ولكن قبل أن يستطيع الطرفان الوصول إلى نتيجة حاسمة ، لقي على مصرعه في أوائل (٦٦١) على يد أتباع حزب ثالث . وأعلنت خلافة الحسين[1] بالكوفة ، ولكنه تنازل عنها لمعاوية بعد ذلك ببضعة أشهر — ومنذ تلك اللحظة استتب الأمر للبيت الأموى الذى قدر له أن يحكم الإمبراطورية حتى (٧٥٠ م) .

وفضلا عن الأخذ ببدعة نظام الوراثة في الحكم ، التي لم يكن فرضها على العرب من الأمور الهينة ، فإن هناك تغييرات هامة أخذت تدخل على نظام الحكم[2] .

وجعلت دمشق عاصمة للبلاد ، وحلت السلطة السياسية محل ما كان للمدينة من سلطة دينية ، وهى سلطة سياسية استمدت أجهزتها من النظام الإدارى البيزنطى . وبلغت قوة الأمويين أوجها في مطلع القرن الثامن . وعلت كلمة الشام واستقرت سيادتها ، وقام على تنفيذ أوامر الخليفة بمختلف الأمصار ولاة أشداء . وجددت حملات العرب على بيزنطة بعنف زائد . وفي الغرب أضيفت أسبانيا إلى ممتلكات الإمبراطورية ، على حين تقدمت الجيوش الإسلامية شرقا

---

(١) الحقيقة أن الذى تنازل عن الخلافة هو الحسن . [المترجم]

(٢) انظر ص ٢٦٥ — ٢٦٦ من هذا الكتاب .

حتى بلغت البنجاب ، وتوغلت فى أواسط آسيا . وقام بدمشق بلاط رائع ، ازدهر فى ظله الشعر وتقدمت العلوم ، كما أن المسجد الأموى بدمشق ومسجد عمر ببيت المقدس يعدان مظهرا لازدهار ثان أصابه فن العمارة البيزنطى ، بفضل ما اجتمع للعرب من الثروة .

سقوط الدولة الأموية

وهنا أخذ الانهيار يتطرق إلى الدولة . إذ إن الفترة الأخيرة من تاريخ الأمويين ، ليست إلا فترة تعاقب فيها على الخلافة خلفاء قصار العهود ، ونشبت فيها المنازعات الشديدة وشبت فيها الثورات العديدة . وانبعثت المعارضة للبيت الأموى من جهات كثيرة . ولم يحدث قط أن أئمة المدينة المؤمنين بالحكم الدينى (الثيوقراطى) الانتخابى أظهروا فى أى يوم رضاهم عن العظمة التى بلغتها بالشام جماعة القواد والساسة الوطنيين ، ولذا لم يكن بد من أن تواجه الدولة مؤامرات مستمرة فى ذلك البلد . وتطورت المنازعات المحلية حتى غدت تنافساً بين القيسية عرب الشمال وبين اليمنية أو القطحانية عرب الجنوب ، ومالبثت أن انتشرت بكل أرجاء الإمبراطورية . كما أن ما أحدثته الفتن الداخلية من التمزق والانقسام فى إفريقية وأسبانيا لا يقل عما أحدثته فى العراق وخراسان ، بل إن أصداء التنافس ترددت داخل البيت الأموى نفسه وتمخضت عن كثير من الاغتيالات داخل القصر وعن عزل العديد من الخلفاء . على أن ألد أعداء تلك الدولة كانوا هم الشيعة ، الذين استقرت قيادتهم العليا ببلاد العراق . ومن المعلوم أن الكوفة جعلت عاصمة للدولة أيام خلافة على القصيرة الأجل . ولذا لم تبرح لتلك الذكرى الذهبية صورة ماثلة تزيد فى حدة الشعور بالكراهية والامتعاض نحو أهل الشام الذين تفوقوا فى القوة والحضارة . ولم تلبث حركة الشيعة أن اتشحت رويداً بتلك الألوان العاطفية الحادة التى تتخذها كل نحلة

دينية . فرفع على وابنه الحسين اللذان سقطا دفاعاً عن قضية أهل الكوفة إلى مصاف الشهداء والصديقين . وصار صهر رسول الله وسبطه الحسين شهيدى الإسلام . وأصبح لسلالتهم أو لفئة معينة منها على الأقل (وهى مسألة أثارت خلافاً جديداً) الحق الشرعى دون غيرهم فى تولى الخلافة . على أن الثورة لم تنبعث من العراق ، بل من فارس . فعلى الرغم من أن فارس ظلت على الجملة موالية لبنى أمية أيام رفعتهم ، كما بقيت بعد سقوطهم أشد إخلاصاً لذكراهم من أية ولاية أخرى عدا الشام ، إلا أن أطرافها الشمالية الشرقية كانت مسرحاً لثورة غيرت وجه العالم الإسلامى بأكمله .

وقد ظهرت فى خراسان حركة قوية مناهضة لأهل الشام والأمويين يؤيدها عرب الجنوب القحطانية ويسيطر عليها النفوذ الفارسى ، وتولى مرشحها أبو العباس الملقب بالسفاح ومؤسس الأسرة العباسية خلافة المسلمين ، فأمعن فى سفك الدماء إمعاناً يبرر إطلاق اللقب عليه . وراح يطلب أفراد البيت الأموى ويقتلهم الواحد بعد الآخر ، ولم ينج منهم إلا واحد لاذ بالفرار غربا حتى بلغ أسبانيا ، وهناك استتب له الأمر واستولى على مقاليد السلطان وفى تلك الأثناء أحرقت رفات الأمويين السابقين وذريت فى الريح ودمر كل ماشيدوا من قصور وقناطر سقاية تدميراً شاملا . ذلك أنه قد حانت بداية عصر جديد ؛ وذلك هو الشعار الذى اتخذه الفاتحون .

الإمبراطورية الإسلامية

وكان الفاتحون فى ذلك على جانب الصواب . إذ يسجل انتصار العباسيين تغييراً شاملا فى الإمبراطورية الإسلامية ، كما يتبين ذلك فيما بعد فى كل مايتعلق بالأمور الإدارية والاجتماعية . فمنذ تلك اللحظة تخلى الفاتحون العرب عن مكانتهم السامية الانعزالية . فقد ظهرت أهمية ما كان من تزايد عدد من اعتنقوا

الإسلام ، وضرورات الحكم والإدارة والتجارة ، وتفوق الشعوب المغزوة فى الكثرة والحضارة . فلم يعد الإسلام دين السيد الأعلى العربى ؛ بل أصبح القوة التى يرتبط بها المسلمون من جميع الأجناس . والخليفة هو رمز تلك القوة . فلم يعد ذلك الخليفة كشأنه فى عهد الأمويين المدبر لخطط الفتح والاستغلال ، يساعده فى ذلك جنس ملكى إمبراطورى . وعلى الرغم من ازدياد أجهزة الحكم وتعقد النظام الإدارى ، فإن أقاليم الإمبراطورية الإسلامية نجحت فى تحرير نفسها مما للسلطة المركزية من هيمنة سياسية ، على حين ظلت على ولائها لسلطة تلك الحكومة الدينية ـ وكانت أسبانيا أولى البلدان التى انفصلت عن الدولة . ففى (٧٥٦) نودى بعبد الرحمن ، آخر من بقى حيا من الأمويين ، أميرا وأخذ يحكم البلاد بوصفه أميرا مستقلا . ولم تلبث ولاية إفريقية أن حذت حذوها . ففى (٧٨٨) أسس إدريس بن عبدالله ، وهو من سلالة على إمارة مماثلة بمراكش ، هى إمارة الأدارسة التى جعلت فاس عاصمة لها . وهنا أيضا لم ينتقض أحد على السلطة الدينية للخليفة ، وإن كان الأمير مستقلا بالفعل ـ واستقرت فى القيروان بأرض تونس إمارة أهم من إمارة الأدارسة . إذ إن إبراهيم بن الأغلب حوالى (٨٠٠) أسس أسرة الأغالبة ، الذين سيطرت قوتهم البحرية طوال القرن التاسع على الحوض الأوسط للبحر المتوسط . وواصل المسلمون فتح صقلية حتى تم لهم ذلك فى (٩٠٢) . ولم يكفوا عن الغارة على جنوب إيطاليا وإعمال السلب فيه ، وفى (٨٤٦) كانت روما نفسها مسرحا لإحدى مغامراتهم الجريئة . وحوالى (٨٧٠) وقعت فى أيديهم مالطة التى تعتبر مفتاح التجارة الغربية على حين أن مدن البحر الأدرياتى ، ظلت آنذاك على الدوام تحت رحمة القراصنة المسلمين المغيرين عليها . ولم يتم دفع العرب إلى إفريقية إلا بعد قدوم النورمان فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر . على أن مصر لم تنفصم روابطها نهائيا بالسلطات العباسية إلا عند الفتح الفاطمى لها فى (٩٦٩) ، وعندئذ تحولت

مواردها التى كانت فيما سلف تنصب فى خزائن بغداد إلى تجميل القاهرة ، وأصبحت فى أثناء القرون التالية من أزهى عواصم العالم الإسلامى وأفخمها .

وأخذت الأقاليم فى الشرق والغرب تنسلخ ويستقل الواحد منها بعد الآخر ، حتى إذا وافى القرن العاشر الميلادى ، لم تعد الإمبراطورية الإسلامية وحدة سياسية . على أنه ساد أرجاء الإمبراطورية الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها وحدة من نوع آخر ، لاتقل أهمية عن الوحدة السياسية ، غير أنها لاتضارعها من الناحية المادية . فلم يكن عبثا أن نفس الأذان الداعى إلى الصلاة ، كان ينطلق فى نفس الوقت من مآذن قرطبة والقيروان والقاهرة ودمشق وبغداد ، وأن كل الوجوه كانت تتجه كل يوم صوب مكة ، وأن كل القلوب كانت تهفو إلى الذهاب إلى تلك البقعة المقدسة أداء لفريضة الحج . وثمة رابطة أخرى اجتمعت إلى وحدة العقيدة هى وحدة اللغة ، ذلك بأن العربية أصبحت فى كل مكان لغة الدين ووسيلة العلم الصحيح ، وأكبر آية على مابلغته بغداد من مكانة وفخامة مسارعة جميع الأقاليم إلى محاكاة نظام الحكم فيها وتقليد عرفها وعمارتها ؛ كما أن فيض التجارة الدافق الذى ينساب برا وبحرا من أقاصى أرجاء آسيا إلى المحيط الأطلسى ، أحاط مختلف شعوب الإسلام بشباك حضارة خصبة متعددة الجوانب .

النظام الإدارى فى حكم العباسيين

وفى أيام الإسلام الأولى التى تقدم محمد (ص) فيها أتباعه فى المدينة للالتقاء عسكريا بالقوافل ، كان كل مايحتاج إليه الأمر من التنظيم المالى هو تقسيم بسيط للغنائم . واستمر هذا الأمر طويلا فى المرحلة التالية ؛ وذلك لأن الإمبراطورية الأموية فى عهدها الأول كانت فى واقع الأمر تقوم على نظام الغنائم . فكان

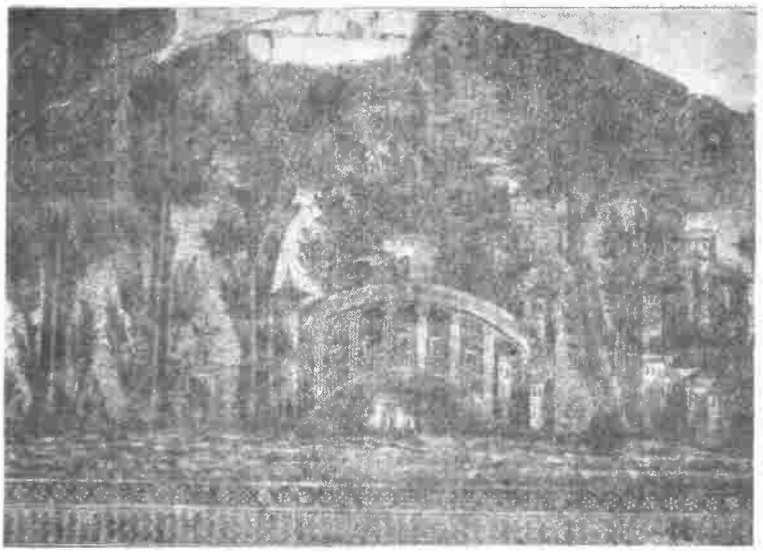

١٠ — (ا) صورة فسيفساء من المسجد الكبير بدمشق

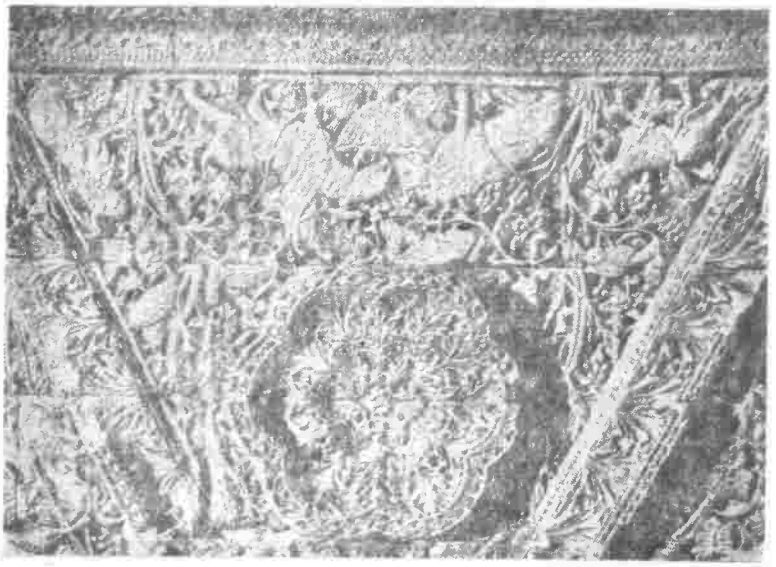

١٠ — (ب) صورة نقش محفور من المشتى

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

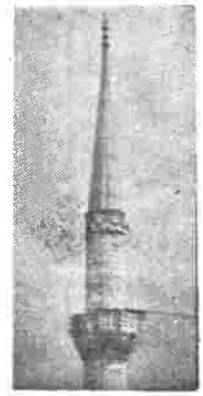

(٥)

(٦)

١١ ــ أنواع المآذن :

(١) من شمال إفريقية (٢) عراقية (٣) فارسية
(٤) مصرية (٥) من القسطنطينية (٦) هندية

الفاتحون العرب ينزلون فى معسكرات حربية ضخمة ، ويأخذون الجزية التى كانت تفرض على الشعوب المقهورة . ثم يرسل فائض الدخل إلى بيت مال المسلمين بالمدينة ، فيوزع منه الخليفة الأعطيات على الناس .

وسرعان ماتجلى للقوم أن هذه الخطة لاتكفى للقيام بحاجات الإمبراطورية . وكلما زاد الإسلام انتشارا بين الناس، تضاءل ماتحصله الدولة من الخراج ؛ وذلك لأن الذميين وحدهم هم الذين كانوا يدفعون الجزية ـ وعندما زادت هذه الطبقة نفوذا وصوتا ، لم يكن بد من أن تثير شكاياتها المتاعب ، وتبين آخر الأمر أن هـــذه الطبقة كانت من أهم العوامل التى أدت إلى سقوط الدولة الأموية . وأخذت الأنفس تضيق رويدا رويدا بالنظرية القائلة بشعب أو عنصر ممتاز مسيطر يرتهن فى يمينـه شعوبا ومناطق مترامية . وتتجلى إحدى مراحل تلك العملية فى الحل الوسط الذى تم به إلزام جميع أصحاب الأراضى ، بدفع الخراج (أى ضريبة الأراضى) إلى بيت المـال ، بغض النظر عن عقيدتهم ، بينما التزم الذميون بدفع ضريبة الرءوس (الجزية) ، لتـكون آية واضحة على تفوق المسلمين .

ولم يكن انهيار هذا النظام القائم على الاعتزال والسيادة العنصرية إلا واحدا من التغيرات العديدة التى آذن بها قيام الدولة العباسية . إذ إن الممتلكات الإسلامية قد انتزعت من قبضة إمبراطوريتين عريقتين فى الحضارة : هما فارس وروما . ولم يكن للعرب من الخبرات السابقة ما هيأهم للنظم الإدارية المعقدة التى اقتضتها ضرورات أحوالهم الجديدة . وكانت النتيجة أن الفاتحين احتفظوا فى كل من مصر والشام بالجهاز الحـكومى البيزنطى ، كما أن البرديات المـكتشفة حديثا تشهد بمواصلة الغزاة الاحتفاظ بالنظم المالية والإدارية بهذين القطرين . ولما انتقلت العاصمة إلى بغداد ، كان لنفوذ الفرس

أثر محسوس فى الحكومة المركزية . إذ لم تكن العاصمة الجديدة لتبعد أكثر من ثلاثين ميلا عن طيشفون (المدائن) ، وهى العاصمة القديمة لملوك الساسانيين. ولم تلبث الأسرة الجديدة (العباسية) أن حاولت مزج العنصرين الفارسى والعربى ، وإقامة توازن متكافئ بين الطرفين . وأشد مظهر لهذا التغير إنما يتصل بمركز الخليفة نفسه . فقد كانت السلطة الصادرة عن المدينة تتخذ طابعا روحيا فى عهد أبى بكر الذى ولى الخلافة بعد النبى مباشرة . على أن ساسة بنى أمية فى دمشق حولوا هذه السلطة فيما بعد إلى سيطرة سياسية منظمة ، وإن بقيت آثار من أصلها العربى فيما عرف عن الحكم الأموى من التمسك بأساليب القومية العربية . أما الخلافة العباسية فإنها تعد بمعنى ما ، عودة إلى مبادئ الإسلام الأصلية . وذلك لأن الحركة التى أوجدت تلك الخلافة قد غلب عليها الطابع الدينى إلى حد كبير ، وهى تعتبر رد فعل طبيعى للطابع الدنيوى الذى اشتهر به الأمويون ، وكانت النتيجة المنطقية أن الحكام الجدد حرصوا على دعم سلطتهم بنظريات فقهاء المدينة ، وهى نظريات اقتبسوها من نصوص القرآن واستندوا فيها إلى بعض الأحاديث النبوية ، وتجلت فيها الاستفاضة والمعاناة فى البحث والدرس ، وذلك لأن فقهاء الحجاز المؤمنين بالحكم الدينى (الثيوقراطى) ، ظلوا نيفا وقرنا من الزمان نافرين ومبعدين عن كل مشاركة فى حكم المسلمين القائم بدمشق . وكان حكم الخليفة العباسى مطلقاً من الناحية النظرية. غير أن هذا الحكم المطلق كان مقيدا من نواح عديدة. فإن سيادة الخلفاء على مختلف الإمارات كانت كما أسلفنا إليك سيادة ظاهرية لا حقيقية ، بل إن سلطة الخليفة فى العاصمة نفسها كثيرا ما طغت عليها سلطة الوزراء . وكان الخلفاء الضعاف يقنعون بالانسحاب من مشاهد الصراع فى الحياة العامة وينصرفون إلى إشباع رغباتهم بمعزل عن الدنيا ، تاركين لموظفيهم شئون

الحكم فى الإمبراطورية ، وموكلين بجنـــدهم الخراسانية أمر حراسة أشخاصهم . ولم يفت قواد الجيش أيضاً أن يحرزوا نصيبهم من السلطان السياسى ، إذ كثيراً ما كان رجال الجيش ينصبون الخلفاء ويعزلونهم .

وكانت تتبع الوزراء سلسلة معقدة من الإدارات الحكومية وهى المعروفة بالدواوين ، التى تتولى شئون بيت المـال والقضاء والجيش والديوان الخاص وما إلى ذلك . ومن أهم هذه الدواوين ديوان البريد ، وهو مثال طريف للطريقة التى ورث بها الخلفاء تقاليد كل من روما وفارس . فإن لفظة « البريد » منقولة عن اللفظة اللاتينية (Veredus) ، أى الحصان المخصص لنقـل الرسائل ، ولا يختلف نظام البريد عما كان معروفاً باسم (Cursus pudlicus) أى المراسل العام فى أنه نظام حكومى ، الغرض منه تحقيق سيطرة الحـكومة المركزية ، وضمان سرعة انتقال الجند والموظفين . ومن مظاهر نظام البريد ما يرجع أيضاً إلى النظام الفارسى فى عهد الأخمينيين ، الذى وصفه هيرودوت ؛ وكان من بين أغراض نظام البريد العباسى كسلفيه الأقدمين ، مباشرة الجاسوسية التى كانت تمارس على نطاق واسع فى كل طبقات المجتمع . على أن ما بلغته هذه الجاسوسية من نمو متزايد جعلها من أهم أجهزة الحـكم ، يعد نموذجاً لما ساد بغداد من طرائق الحـكم الشرقى . فلم يكن للحـكومة ثقة بأى موظف ، حتى أسرة الخليفة نفسها كانت موضع رقابة شديدة . وكانت الشرطة تؤلف جزءاً هاماً من إدارة المخابرات ، وتشمل واجباتهم التدخل فى أدق تفاصيل الحياة اليومية ، ومما زاد فى تقييد حرية الرعية ، ما زخرت به كل مدينة من عدد ضخم من الموظفين المحليين والقضاة وجباة الضرائب والقائمين على أملاك الخليفـة .

وكان للتغير الذى أحل حـكم العباسيين ذا الطابع العالمى ببغداد محل حكومة دمشق القوميـــة ، نتيجة أخرى هى التعجيل بامتزاج الغالب

بالمغلوب . فمنذ تلك اللحظة ، صار الجميع يخضعون لحاكم واحد ، على أن الواقع أن عملية التسوية بين الجميع بدأت فى عهد بنى أمية . فطالما كان العربى — وهو القليل العدد والمحدود علماً — يحتفظ لنفسه بفضل امتلاك العقيدة الحقة ، ويعيش فى عزلة شديدة كأنه من أهل إسبرطة ، ويتباعد عن القطيع العام من الناس بمعسكره المسلح ، ويحصل على عيشه من أعطيات الخليفة ، فإنه بفضل ذلك كله كان مستطيعاً الاحتفاظ بمركزه الأمين الممتاز . ولكن هذه الامتيازات لم تدم طويلا . وكان من العوامل التى أفضت إلى ذلك ، أن الحدب على المصالح المادية وإغفال الاهتمام بالدين ، أديا إلى تزايد عدد من اعتنقوا الإسلام من غير العرب ، فنقصت بذلك الجزية المجبية من الذميين ؛ كما أنه حدث من ناحية أخرى ، حينما انتهت حروب الفتح ، أن لم يعد العرب يعيشون على الأعطيات التى يتقاضونها من الدولة ، وصاروا أصحاب أرض وفلاحين أو تجاراً صغاراً يخضعون للقوانين الاقتصادية والصفات الاجتماعية السائدة فى البلاد التى يتصادف استقرارهم فيها . وكان لابد له من التعليم والقدرة الفكرية إن هو شاء الاحتفاظ بمكانته . ذلك أن الحضارة المعقدة التى استقرت ببلاد الإسلام أيام بيزنطة ظلت ماضية فى سبيلها دون تغير كبير ، وظلت كدأبها فى الماضى تحتاج إلى المحنكين فى الشئون الإدارية . وقد دعت الحاجة المسلمين حتى فى أيام الفتح إلى استخدام المسيحيين فى أعمال تتطلب الثقة وبخاصة فى الشئون المالية : كما أن تسامح بنى أمية إزاء غير المسلمين ، أفسح لهذه المجتمعات مجال اليسار المادى على شريطة تسديد الضرائب المقررة ؛ وهى ضرائب لم تكن فى جملتها أثقل بأية حال من تلك التى كانت تبتزها الحكومة البيزنطية . ومنح المسيحيون نصيباً كبيراً من الحكم الذاتى ، فزخرت البلاد بالكنائس والأديرة . ومما له دلالته ، أن هذا الزمان امتاز بما بذله النساطرة من نشاط تبشيرى تغلغل فى آسيا حتى بلغ الصين نفسها .

ومع ذلك ، فقد مرت أوقات كان للتعصب الديني فيها سلطان غالب على النفوس. ولم تجد نعرة الكبرياء العربية متنفساً تعبر فيه عن نفسها خيراً من المراسيم التي تحرم على النصارى امتلاك أرقاء مسلمين وتنكر عليهم أنواعاً منوعة من الامتيازات القانونية ، بل حتى تصر على ارتدائهم زياً خاصاً . على أن الاتجاه الرسمي ظل في جملته ينزع إلى التسامح ، كما أن تناقص عدد المجتمعات المسيحية لا يرجع إلى الاضطهاد الديني بل إلى أسباب أخرى . فإن الطبقة المتعلمة من أبناء العقيدتين كانت تكتشف أن بين الديانتين أسساً كثيرة مشتركة ، كما أن تطورات الفكر الإسلامي بكل من مصر والشام تشهد بتأثير الفكر المسيحي . وكما هو الشأن في أيامنا هذه بذلت محاولات للتوفيق بين الدين والعلم الحديث ، ولذا فإن الأساس الفلسفي للعالم القديم الذي يمثل خلفية تم التوفيق بينها وبين المسيحية إلى حد ما ، قد وجب آنذاك اللجوء إليه لشرح شعائر الإسلام وعقائده ، حتى يلقى الدين الجديد قبولا لدى المفكرين . على أن غير المفكرين كانوا في الحين نفسه يرون أن التوفيق الرائع الذي أصابته الجيوش العربية تتجلى فيه رعاية الله وصنيعه ، فلم يسعهم إلا الإذعان للأمر الواقع . وثم عامل أخير كان له أثر عظيم في أخيلة الناس ، هو ما ذاع في الآفاق من سنا العظمة من العواصم الإسلامية الكبيرة ، التي كانت تتشكل بها حضارة زاهرة متأثرة بجميع العوامل حديثها وقديمها . فقد حدث في أسبانيا مثلا ، أن لاتينية المؤرخين وعلماء الدين (اللاهوتيين) ذات الطابع المتبربر لم تستطع أن تصمد تلقاء ما للشعر والأدب العربي من جمال فاتن : فإن كاتباً من أبناء القرن التاسع شكا مر الشكوى من أنه يوجد بين المسيحيين أنفسهم من يقدرون جمال اللسان العربي تقديراً يفوق كثيراً تقديرهم لكتاب الآباء الأولين .

التجـــارة

وكان اتساع التجارة العظيم التالى لقيام الإمبراطورية الإسلامية ، من التطورات الرئيسية التى فرضت عليها تلك الوحدة السابق الإشارة إليها . فبالإضافة إلى أن صناعات مصر والشام وهما أغنى أقاليم الإمبراطورية البيزنطية ، واصلت كسابق عهدها إنتاج المصنوعات الزجاجية والمنسوجات وغيرها من السلع المصنوعة ، فإن العهد الجديد حقق للتجارة مزايا خاصة . ذلك أن العربى ما يكاد يستقر حتى يتجه بطبعه إلى الاشتغال بالتجارة . وكان رخاء مملكة الحيرة يقوم على أسواقها العظيمة ، وذلك هو الشأن فى رخاء اليمن القائمة فى الطرف الأقصى من الجزيرة العربية ، ومرجعه إلى البضائع الآسيوية التى كانت تمر بمينائها ، بينما كانت أسواق مكة وقوافلها تشكل الصناعة الرئيسية فيها . وكان النبي نفسه تاجراً ، والقرآن يجعل للتاجر منزلة كريمة . ولذا فإن أحوال الحياة الاجتماعية الإسلامية تفوق فى ملاءمتها للنشاط التجارى أحوال العالم اليونانى بما اشتهر به من احتقار لكل صاحب حرفة . ولا تنس أن التركيب الجغرافى للعالم العربى كان يوائم تلك الغاية بصورة خاصة . فقد انتهى عند ذاك ما كان بين روما وفارس من عداوات أوقفت تدفق التجارة بين الشرق والغرب ، وبذا أصبحت تخضع لأمير واحد كتلة متماسكة من الأرض ، تمتد مترامية من المحيط الأطلسى إلى سهوب آسيا الوسطى . ولم يعد البحر الأحمر والخليج الفارسى خصمين متنافسين ، بل أصبحا طريقين متبادلين ، وبذا أصبح كل ما يصل إلى أوربا من ذهب وعاج من وسط إفريقيا ، ومن توابل وعطور من الشرق الأقصى ، لا منـدوحة له أن يمر على أيدى المسلمين . ومما يجدر ملاحظته أن المدن الكبرى بالإمبراطورية إنما تقع عنـد التقاء طرق المواصلات الطويلة . فمدينـة

دمشق التى تقع عند نقطة تقترب فيها القوافل القادمة من وسط آسيا من البحر المتوسط ، كانت تتلقى كذلك تجارة مصر والشام وما يرد من السلع عن طريق البحر الأحمر . أما القاهرة فكانت سوقا للمنتجات الخام الواردة من آسيا وإفريقيا ، كما أنها كانت مركزا صناعيا ، وكانت تنتشر من مصر على ساحل البحر طائفة من المدن التجارية الزاهرة تؤدى إلى عواصم شمال إفريقيا وأسبانيا . وقد بنيت البصرة على نهر الفرات بعد فتح فارس بزمن وجيز ، وذلك بقصد السيطرة على الخليج الفارسى وتجارته الشرقية . ولكن سرعان ماطغت بغداد على أهميتها . وشقت بين دجلة والفرات قناة ربطت بين بغداد وبين الطرق البرية القادمة من آسيا الصغرى والشام ومصر ، على حين أن القوافل المقبلة من آسيا الوسطى كانت تهبط عند أبوابها قادمة من مرتفعات فارس وبخارى . بيد أن التجارة البحرية كانت أرحب مجالا . وتروى قصص السندباد البحرى التى تصور ذلك الرجل مقيما فى أوائل القرن التاسع فى عهد الخليفة العباسى هرون الرشيد ما يشير إلى أن جميع رحلاته تبدأ من بغداد ، كما أن كثيرا من الأحداث والأماكن المذكورة فيها ، يمكن تحقيقها من مصادر أخرى . وتصف كتب الأسفار العربية التجارة فى سيلان وملبار ومدن السواحل الهندية . وتشير السجلات الصينية إلى ما كان بالصين من تجار العرب فى عهد أسرة تانج . بل إن منهم من بلغ كوريا . وفى الغرب ، أظهرت موانى مصر وشمال إفريقية نشاطا مشهوداً ، كما أن السفن المصرية والإفريقية كانت تربط مدن الساحل الجنوبى من البحر المتوسط حتى أسبانيا غربا . على أن تجارتهم مع فرنسا وإيطاليا كانت ضئيلة لاتكاد تذكر ، إذ كان المسلمون يهبطون هذه الشواطىء قراصنة لاتجارا . وظلت بيزنطة مركزاً للتجارة الأوربية ، ولم يلتق المسلمون والمسيحيون لتبادل السلع إلا فى القرن العاشر ، حيث بدأ العرب يجوسون خلال أسواق بيزا وأما لفى تجاراً آمنين .

على أن تأثير التجارة الإسلامية كان محسوسا فيما وراء حدود الإمبراطورية الإسلامية بآماد شاسعة . ففى الشمال كانت طرابيزون مركزا هاما للتجارة ، لايؤمه التجار من أجل سوقها فحسب ، التى اجتذبت إليها التجار من كل أرجاء الشرق الأدنى ، بل لأنها أيضاً كانت نقطة الحدود التى تلتقى عندها تجارة الروم والعرب . وبهذه الوسيلة كانت المنسوجات والمصنوعات المعدنية وغيرها من المنتجات تتخذ طريقها إلى القسطنطينية ، ومن الممكن ترسّم أثرها فى الحضارة البيزنطية . وكان سيل من التجارة يتدفق فى مجرى الفولجا وغيره من الأنهار ، ويصل إلى وسط الروسيا واسكندیناوه عن طريق مملكة الخزر . وآية ذلك أن مقادير ضخمة من العملة الإسلامية معظمها من خراسان والجهات الشرقية للخلافة الإسلامية ، اكتشفت بجهات نائية مثل ألمانيا وأقاليم البلطيق ، ويدل مصدرها واتساع توزيعها على ضخامة حجم التجارة بين الأقاليم الأسيوية وشمال أوربا ، وهى تجارة بلغت ذروتها فى السنوات الأولى من القرن التاسع .

ومما زاد فى حجم التجارة ونشاطها داخل العالم الإسلامى ، رحلات الحج التى تدعو إليها العقيدة الإسلامية والتى كان الخلفاء يشجعونها . وعنيت الدولة بتحسين المواصلات بما احتفرت من آبار وما شادت من فنادق القوافل (المسافر خانات) ، وأقيمت الأسواق الكبيرة بمراكز الحج . وكلما فقد الحكام العرب المثل العليا التى استنها لهم نبيهم ، والأخلاق البسيطة التى أورثها لهم أسلافهم ، نقلوا عن الإمبراطوريتين القديمتين اللتين حلوا محلهما حب الترف والمظاهر ، فأحاطوا أنفسهم بأبدع المبانى وأفخر الرياش ، فازداد بذلك الطلب على المنتجات الدقيقة والسلع المستوردة .

الأدب الإسلامى

إن التطور الذى نالته حضارة الإسلام الروحية قد سار جنبا إلى جنب مع حضارته المادية . وكما أن الفاتحين العرب أدركوا أن من الضرورى لهم تكييف عاداتهم وفق النظم القديمة التى هى أعلى تطوراً وقد وجدوها عند الشعوب المقهورة ، فقد حدث أيضاً أن الفقهاء أدركوا ـ وقد واجهتهم فى الخارج فلسفات متضاربة متناحرة واصطدموا فى الداخل بنزعات متشعبة ـ أن عليهم أن يوضحوا القرآن ، بأن يقيموا على أساسه السهل صرحا ضخما من التعقيبات والشروح . ولما كان القرآن لديهم المصدر الأعلى للدين والشريعة والأخلاق ، صار من الضرورى لهم التوفيق بين آياته وعمل تصنيف لتلك الآيات ووضع ترتيب لها. والتماساً للقواعد والأحكام حاولوا باستخدام القياس والاستنباط أن يجعلوا أحاديث الرسول تنطبق على أحوال لم يكن يتوقعها . ومن ثم فإن الأصل فى شطر كبير من الإنتاج الأدبى الرائع الذى ظهر فى العهد العباسى ، إنما يرجع إلى دراسة القرآن . بل إن أول دراسة علمية للنحو العربى ، لم تتم فيما تقول الروايات ، إلا بقصد المحافظة على نص القرآن . ومهما يكن الأمر ، فإن تطور اللغة العربية كلغة أدبية مرتبط ارتباطا وثيقاً بما أحسه أتباع العقيدة من حاجة إلى الشرح والتوضيح . واقتضت الرغبة فى تتبع تعاليم النبي ، إجراء دراسة حول حياة النبي وتقاليد أسرته. فإذا اجتمع ذلك بدراسة حياة الأبطال الأوائل للإسلام ، تهيأ الباعث لكتابة التاريخ ، التى جعلها المؤرخون المسلمون تنطوى على قدر كبير من التراجم والنوادر . وعلى هذا النحو ظهرت طائفة ضخمة من المصادر التى تعالج الفقه ، واستندت أساسا إلى القرآن ، باعتباره النوع الأول والمرجع الأصيل .

أما من حيث علم أصول الدين ، فإن المفكرين المسلمين أخذوا يواجهون من المشاكل ، ما يماثل ماسبق أن كدر صفو الكنيسة فى مستهل أيامها .

وبتأثير مدارس الفلسفة اليونانية بدأ القوم يستخدمون الاستدلال المنطقى فى موضوعات من أمثال وحدانية الله وصفاته ومسألة الجبر والاختيار . وفى أثناء النصف الأول من القرن التاسع بلغ التحدى للسنيين الذين يلتزمون حرفية التقاليد الذروة فى تلك المحاولة المنظمة التى بذلت للتوفيق بين العقل وسلطان الدين . وفازت الفلسفية الكلامية الرسمية بالظفر فى تلك المعركة، ومنذ تلك اللحظة لم يكن سبيل للهرب من جدب تلك الفلسفة الكلامية «المدرسانية» وجفافها إلا باللجوء إلى طريق التصوف . وانتهجت الفلسفة المحضة ذلك الطريق نفسه. وبذل ابن سينا (المتوفى ١٠٣٧) محاولة قاطعة للتوفيق بين مذاهب أرسطو وبين الفكر الإسلامى ، وواصلت القيام بعمله مدرسة المفكرين الأندلسيين الضخمة التى كان لها أثر بالغ القوة على أوربا فى القرون الوسطى . فإن العقيدة الإسلامية السنّية احتفظت بمكانتها فى الشرق ولا سيما فى فارس ، وعلى الرغم من أثر الغيبيات (الميتافيزيق) وعلم النفس اليونانى فى الشرق ، فإن العنصر التصوفى سيطر على الفكر الفلسفى الذى تطور بتلك المنطقة . وكان للترجمة من اليونانية كذلك الفضل فى كثرة ماظهر من مؤلفات فى الطب ، وازدهرت مدرسة كبيرة من الأطباء فى عهد الدولة العباسية . وكان احتذاء حذو اليونان دافعا للمسلمين على إنشاء دوائر المعارف ، كما أن ترجمة نظريات اليونان والهنود فى الفلك والرياضة أدت إلى وصول علماء الإسلام بعد ذلك بزمن غير بعيد إلى مكتشفات تتصف بالأصالة. وفى تلك الأثناء ازدهر الأدب فى البلاط العباسى — على أنه والحق يقال أدب «تهرب» لا أدب تعبير ، ولكنه يتميز بما يترقرق فيه من فتنة ساحرة وأستاذية فنية باهرة . وازدهر النثر فتشكل أخيلة رائعة ومفاتن دقيقة خلابة ، على حين كان الشعر يتراوح بين الغزل الرفيع والخمريات المرحة وبين ماغلب على شعراء الزهد والتصوف من التأمل السوداوى .

الفن الإســـلامى

أما الفن الإسلامى فإنه هو أيضاً يقوم بتمثيل الأوضاع المحيطة به ، إذ يستطيع المتأمل أن يشهد فى تطوراته بوضوح لا بأس به ، المؤثرات الكبيرة التى تكاثفت لإنتاج حضارة عظيمة . فهو خلاصة لتاريخ الإسلام فى كل نواحيه . على أنه نظراً لسرعة ازدهاره يعطينا لأول نظرة نلقيها عليه مظهر أسلوب جديد أصيل انتشر منذ القرن التاسع إلى القرن السابع عشر حتى شمل أصقاعاً مترامية : تمتد بين آسيا وشمال إفريقية ومصر والشرق الأدنى وفارس والتركستان وشمال الهند ، بما حفلت به من المدن الضخمة والمساجد الفخمة والقصور المتألقة ، وجميعها تتسم بالتجانس فى البناء والحلية ، على الرغم من بعض التنويع الراجع إلى المؤثرات المحلية . على أنه ينبغى ألا يغيب عنا أن هذا المهر خداع . فلابد للمرء من الرجوع إلى المصدر الأصلى لكى يتبين أن الطراز إن هو إلا خليط صيغ من العناصر القديمة ، هو عملية انتقاء ولدتها الظروف الخاصة التى هيأت لجنس فاتح أن يستثمر مختلف الطرائق والتقاليد الفنية عند مجموعة من أقوى الأجناس روحاً فنية . فإذا تجاوزنا عن ثروة الأقاليم المفتوحة ورغدها ، والأموال الطائلة التى سخرتها سلطات الخلفاء المطلقة للإنفاق على أغراضهم الشخصية ، فإن التطورات الاجتماعية والسياسية للإمبراطورية شجعت على نمو الفن الإسلامى وازدهاره . وتمخض قيام عدد من الإمارات المستقلة عن ظهور مجموعة من العواصم المتألقة ، حرصت كل منها جاهدة على منافسة بغداد فى فخامتها ، على حين أن تغير الأسرات الحاكمة وقيام ثورات بالقصور طالما أفضى إلى قيام عواصم إمبراطورية جديدة . ويتجلى ما طبع عليه الحكام من خلق شرقى فى كراهيتهم للمبانى القديمة الموروثة عن السلف ، وتباطئهم فى إصلاح القديم ، حيث كان التبرم يدفعهم على الدوام

إلى اختيار أماكن جديدة لدورهم . وكان ما اشتهر به المسلمون من ميل إلى القيام بالأعمال الخيرية والمنافع العامة،هو السبب فى إقبالهم على تشييد المدارس والعيون والحمامات (والبيمارستانات) المستشفيات وفنادق القوافل ، فضلا عن المؤسسات الدينية البحتة كالمدارس والمساجد والرباطات (التكايا) .

ومنذ البداية ، اقترن اتساع رقعة الإسلام بنشاط عظيم فى العمارة . فبعد وفاة النبي بخمسة أعوام شيدت البصرة على الفرات الأدنى وأقيمت الكوفة جنوبى مدينة بابل ، لتكونا مركزين للنفوذ الإسلامى بأرض الجزيرة . ومن النتائج الأولى التى ترتبت على فتح مصر بناء مسجد عمرو الذى سمى باسم القائد المظفر العظيم ، على حين أن ما يسمى « بمسجد عمر » فى بيت المقدس ومسجد سيدى عقبة بالقيروان يجمعهما أصل واحد متشابه . أما مسجد دمشق الكبير فقد جددت عمارته ليزيد فى أبهة بنى أمية وعظمتهم ، وفوق هذا فإن تركيز الحكم بتلك المدينة صحبه إزدهار الفنون جميعاً . وانتجت فترة عظمة العباسيين عمائر بغداد وأمجادها الرائعة ، فشيدت فيها القصور الفاخرة أثناء القرنين الثامن والتاسع ، ولكن غارات التتار محت معظمها من الوجود . والواقع أن كل العصور التى ازدهر فيها الفن الإسلامى ترتبط على هذا النحو بالأحداث السياسية . إذ إن تألق سلطان بنى مرين بفاس وازدهار نفوذ الفاطميين بالقاهرة ، يتجليان فيما زينت به عاصمتاهما من مونق المبانى ؛ كما أن ما حدث فيما بعد من سيطرة الأتراك والسلاجقة فى أرمينية ، وتيمور فى سمرقند أو المغولى الأعظم فى جنوبى الهند ، إنما يسجلها جميعاً تلك العمائر التى خلفوها وراءهم والتى تعتبر دليلا جلياً على وحدة الفن الإسلامى وقوة حيويته فى مراحل اكتماله ونضجه ، وما له من تأثير على الغزاة الأسيويين غير المتحضرين . ثم إن تأسيس الدولة الأموية بأسبانيا كان مؤذناً بعصر لا نظير له فى الفخامة والازدهار ، بلغ الذورة فى أوائل القرن العاشر . فازدحمت جامعة

قرطبة بالطلاب الوافدين من كل أرجاء الإمبراطورية الإسلامية ، على حين أن المدينة نفسها أثارت إعجاب زوارها القادمين إليها من ألمانيا وفرنسا . وغصت ضفتا نهر الوادى الكبير بالدور المترفة ، وينهض قصر الزهراء دليلا واضحاً على ميول الأمير الحاكم ، وهو مدينة من مدن الخيال حافلة بغريب المباهج . ولم يبق من عمائر تلك المدة إلا النزر اليسير ، مع أنها عمارة لعلها كانت تنافس بجدارة ما بلغه القصر (الكازار) والحمراء من روعة وفخامة ، إن لم تبزهما ، وهما المبنيان اللذان زين بهما أمراء المغرب مدينتى أشبيلية وغرناطة بعد ذلك بأربعة قرون .

عنصر الانتقاء فى الفن الإسلامى

وكما أن قيام الأسرات المالكة وسقوطها يحدد الأزمنة التى ازدهر فيها فن العمارة الإسلامى ، فكذلك الشأن فى الأحوال الاجتماعية للإمبراطورية التى أسلفنا إليك خلاصة لها ، فإنها تتجلى فى تطور ذلك الفن من الداخل . ذلك أن حظ العرب فى الجاهلية من فن العمارة كان ضئيلا ، ومن ثم لم يكن محيص من أن تنهج العمارة الإسلامية فى العصر الأول على نهج تقاليد البلاد المقهورة . فاستولى الفاتحون فى مصر والشام على الكنائس (الباسيليكات) المسيحية وحولوها إلى مساجد بعد إدخال تغييرات طفيفة عليها ، بل الواقع أنهم حتى عندما كانوا يبنون مبانى جديدة ، عمدوا إلى الكنائس القديمة المخربة فسلبوها أعمدتها وتيجانيها . وقد أكثر العرب من استخدام الفسيفساء البيزنطية والأخشاب القبطية المحفورة فى تزيين مساجدهم ، ولا يكاد يكون لديهم ظاهرة من البناء أو الزخرفة لا يمكن إرجاعها إلى ما سبقها من تقاليد أو آثار . ومن الأمثلة الشائعة للتأثيرات الإقليمية المآذن بأشكالها المختلفة . ففى بلاد العراق كانت المئذنة ذات المنحدر شبه الحلزونى بما يعلوها من قبة

صغيرة تبنى على نسق زيجورات[1] بابل القديمة ؛ أما مآذن دمشق ذات الجوانب الأربعة ، والتى ترتفع فى شكل منشور ، فإنها تذكرنا بما كان معروفا فى الأزمنة الوثنية والمسيحية من آثار جنائزية ، وهذا الطراز نصادفه أيضاً فى أسبانيا والمغرب . وقد حمله إلى تلك الأصقاع النائيـة ، النفوذ الدينى والسياسى لعاصمة الأمويين . ولعل المآذن المصرية ترجع فى أصلها إلى فنار (Pharos) الإسكندرية الشهير ، بما فيه من طبقات متداخلة من المناشير ومن مصباح يتوج هامته ؛ ثم إن فارس بتقاليدها القائمة على الشكل الرشيق المتوازن تبنت فى مآذنها هيئة الأبراج المرتفعـة المستديرة . على حين أن الهند أرض الوفرة ، استخدمت التصميمات الفاخرة فى عمارة مآذنها . ثم إن المدرسة العثمانية التى لعلها قد راعتها أعمدة النصر القائمة بالقسطنطينية ، قد رفعت مآذنها كالشموع السامقة المنتهيـة بالمخاريط المدببة الحادة والمحوطة بالشرفات على ارتفاعات مختلفة ، التى تشرف حتى اليوم على مدينة إستانبول .

ومن هنا يتبين أن الفن الاسلامى ليس ابتـكاراً فجائياً لطراز جديد ، بل يرجع أصله شأن سائر مظاهر الحضارة الإسلامية إلى ما كان لمدنيات العصور القديمة من مظاهر عريقة فى نضجها . والشىء الجديد هنا هو امتزاج هذه العناصر المستعارة وانصهارها معاً . إنها عناصر أذابتها طاقات العرب وفتوحهم ، فانصهرت معاً وخرجت فى النهاية مادة جديدة . وكانت جماعات من المعماريين والبنائين وجيوش من الفعلة والأرقاء ، تنتقل من قطر إلى آخر ، فتحمل معها أساليبها الفنية المنوعة إلى بيئة أخرى . وطبقت على الحجر طريقة حفر الخشب ؛ على حين أن ما اشتهرت به فارس من المنسـوجات الجميلة قد نفذ طرازه فى الآجر والرخام ، أما مؤثرات الحفر البـارز والغائر والتصميم ، فحلت محلها

(١) الزيجورات (Ziggurat) كلمة آشورية معناها قمة الجبل أو البرج . وهى فى العمارة تدل على برج هرمى الشكل تقريبا [المترجم]

المواد والألوان المتضادة . وهناك فوق كل ذلك عامل آخر ، هو الروح الداخلى للإسلام ، الذى له أثره فى توحيد هذه العناصر المرنة . فإن للشعائر الإسلامية مقتضيات لا مفر من مراعاتها : فالقبلة (المحراب) التى تتجه نحو مكة التى يولى إليها المسلمون وجوههم فى صلواتهم تلقى من المعالجة المعمارية ما يتفق مع أهميتها . أما صحن المسجد والبئر فيفرضان صفة خاصة على بنائه . وينسب إلى النبى (ص) حديث ينهى عن تمثيل أشكال الناس والحيوان ، ولهذا الحديث أثر جذرى فى الزخرفة الإسلامية ، غير أن بنى أمية بالشام ، وأمراء فارس تجاهلوا ذلك الحظر ، لأنهم حرصوا على الإبقاء على ما كان بأقاليمهم من قبل من فنون التصوير والتشكيل . أما سائر البلاد الإسلامية فإنها لا تستخدم الزخرفة الشكلية ، ومن ثم فقد اتخذ القوم من نبات السنط (Acanthus) ومن خيوط عساليج الكرم ومن موضوعات أخرى فى الفن الكلاسيكى والأسيوى «وسطاً» لفنهم تطور فأصبح ما يعرف باسم فن الزخرفة العربى (Arabesque) . وذلك الفن هو الإطار الذى يتكرر فيه رسم الأزهار والفاكهة ، التى تصحب عادة الأفاريز المؤلفة من كتابات عربية جميلة . ثم تمضى عملية التجريد شوطاً أبعد . إذ أدخل على الأشكال الطبيعية من التعديل والتغيير ما جعلها تختلف عن شكلها الأصلى . ومن ثم أصبح الاتزان والسيمترية (التناسق) مظهرين رئيسيين فى التصميمات الفاخرة عند المتأخرين من الفنانين المسلمين . ثم صارت النماذج الهندسية المتشابكة ذات الخطوط المستقيمة أو المنحنية ، وهى تعد فى إطار تنوعها رموزاً للوحدة ، — صارت تلك النماذج تشبع ما للعربى من نزعة إلى التصوف ، كما تعرض علينا — على حد تعبير بعضهم — « حقيقة قوامها منطق خفى وتماسك رياضى تجلوها فى زى خيال وميل » .

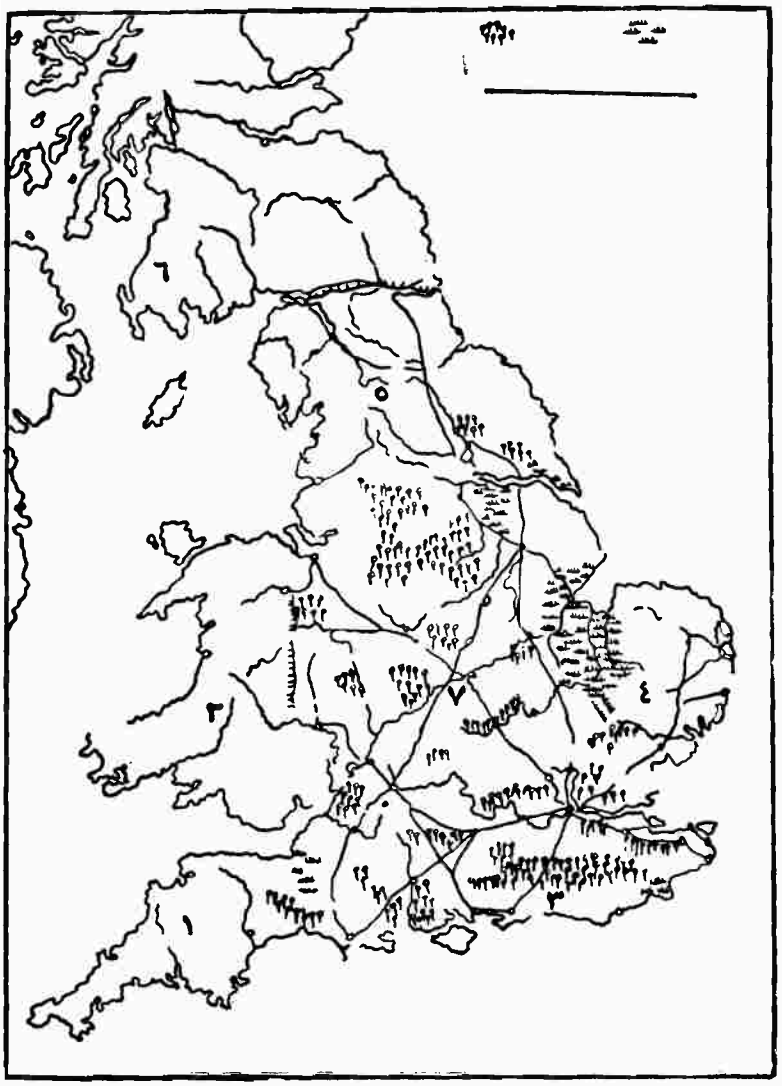

(١٢) خريطة إنجلترا فى عهد الأنجلو سكسون

١ ـ ويلز الغربية ٢ ـ ويلز ٣ ـ السكسون
٤ ـ أنجل الشرق ٥ ـ نورثمبريا ٦ ـ البكتيون
٧ ـ آنجل الوسط